

تفكير الإنسان في مبدأ خلقه

قد قدمنا في هذه الدروس مراراً أن تسمية الله جل وعلا في كتابه للدار الذين أولوا إليها -تسميتها إياها الآخرة ينبعى للمسلم أن ينظر فيه ويعتبر فيه. وقد أوجب الله على كل إنسان أن ينظر في مبدئه، وإذا نظر في مبدئه دعاه ذلك إلى النظر في انتهاء أمره الذي يقول به إلى مسمى الآخرة . وإيضاً حذر أن الله قال بصيغة أمر سماوي من الله: { قَلِيلٌ مَّا خُلقَ } لام الأمر في قوله: { قَلِيلٌ } لام أمر صادرة من خالق السماوات والأرض متوجهة إلى مسمى الإنسان. يأمره الله أن ينظر من الشيء الذي خلق منه؛ ليعلم مبدأ أمره، ومن أين جاء وما سبب وجوده، وعلى أي طريق جاء، ثم لينظر بعد ذلك في مصيره وإلى أين يذهب به، وإلى أين يقبل الصعب، ومتنهاء ومصيره النهائي الذي لا يجده عنه إلى شيء آخر؛ فيبين أن أول الإنسان تراب بله الله بماء، وهو قوله: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثَةِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ } . فمبدأ رحلة الإنسان ومشئه من التراب بلة الله بالماء فصار طينا، وهو قوله تعالى: { أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقَ طِينًا } { إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّنْ طِينٍ لَّا يَرَبِّ } ثم جعل نسله { مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ } ثم إن الله خمر ذلك الطين، حتى صار حماً مسنوناً، ثم أببسه حتى صار صلصالاً كالفالخار. ثم خلق منه آدم وجعله لحماً ودماً، ثم خلق منه زوجه كما قال: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا قَوَّا رَبِّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ } هي آدم { وَخَلَقَ مِنْهَا رَوْحَهَا } : يعني حواء وذكر ذلك في الأعراف وفي الزمر كما هو معروف، ثم بعد أن حصل رجل وامرأة صارت طريقة وجود الإنسان على طريق التناслед المعروفة. يكون أولاً من نطفة أمشاج من ماء الرجل وماء المرأة، ثم يخلق الله تلك النطفة علقة وهي الدم الجامد الذي إذا صب عليه الماء الحار لم يذب، ثم يجعل الله تلك العلقة مصنفة، ثم المصنفة عظاماً، ثم يكسو العظام لحماً، ويخلق هذا البشر السوسي الذي تتظرون إليه، الذي كل موضع عبرة منه فيها من غرائب صنع الله وعجائب ما يبهر العقول. وقد ذكرنا مراراً أن أعظم ما فتن به ضعاف العقول من المسلمين .. الإفرنج في حالة الدنيا، ومن أربع ما يربعوا فيه الطب، وأنا أقول لكم: إنه لو اجتمع اليوم جميع من في المعمورة من مهارة الأطباء يريدون أن يعملوا عملية في جنين في رحم أمه، فإنهم لا يقدرون أن يعملوا العملية حتى يشقوا بطنها ورحمها والمشيمة التي على الولد ، ثم يأتوا بالأشعة الكهربائية: ليتمكنهم أن يروا ثم يعملوا فقد تموت وهو الأغلب . وهذا خالق السماوات والأرض جل وعلا ليس فيينا ولا فيهم ولا في غيرنا أحد، إلا وهو يعمل فيه آلاف العمليات الهائلة، وهو في يطن أمه من يحتاج إلى شق بطنها ولا إلى شق رحمها، ولا إلى شق المشيمة التي على الولد { يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أَمَهَاتِكُمْ حَلْقًا مِّنْ تَعْدُ حَلْقًا فِي طُلُمَاتٍ تَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ قَائِمٌ تُصْرُفُونَ } . هذه الأعين قد فتحها الله جل وعلا وأنتم في بطن أمهاتكم، وصيغ بعضها بصيغ أبيض، وأنبت عليها هذا الشعر، وجعل لها هذه الجفون، وهذا الدماغ خلقه وجعله في هذا الوعاء، وخطط عليه هذه العظام هذه الخياطة الهائلة. وهذا الفم خلقه وثقبه، وهذا الفم خلقه وثقبه، وجعل اللسان، وأجرى في الفم عيناً باردة هي الريق يتطلع بها الطعام، لو أمسك عنه الريق لما ابتلع الزيد الذائب. وشق له مجازي البول ومجاري الغائط، ومجاري العروق والشرايين في الدورة الدموية. ولو نظر إلى موضع عضو واحد من الإنسان لوجد فيه من غرائب صنع الله وعجائب ما يبهر العقول، ومع هذا كله فخالق السماوات والأرض يجعل هذه العمليات الهائلة فيكم وأنتم في بطن أمهاتكم من غير أن يحتاج إلى بنج بل بنج القدرة وعظمة الخالق. يُفعل للمرأة جميع هذا وهي تضحك وتفرح وتمرح، وتعصي خالق السماوات والأرض، لا تشعر بشيء لعظمة وقدرة هذا الإله الخالق العظيم جل وعلا. ثم إن الله جل وعلا يخلق هذا الإنسان بما فيه من الغرائب والعجائب الذي كل موضع عبرة منه يبهر العقول بما أودع فيه الله من بالغ صنعه وغرائب عجائب. ثم يخرجه من بطن أمه، ويسهل له طريق الخروج من ذلك المكان الضيق، كما يأتي في قوله: { إِنَّ السَّيِّلَ يَسِّرَةً } ثم يلهمه أخذ الثدي وهو في ذلك الصغر، ويلطف به حتى يكبر ويعظم، ويكون قوياً يجادل في ربه.